

وصية الحكيم الإلهي ابن مسكويه

الانتصار على هوى النفس

إعداد: «شعائر»

شهد التاريخ الإسلامي على حكيم إلهي كان له الحضور الأبرز في ميدان التأسيس لفلسفة الأخلاق. عينا به الفيلسوف الشهير أبا علي الخازن، أحمد بن محمد بن يعقوب، المعروف بـ«ابن مسكويه». [مَسْكُوَيْه لفظه أعجمية تعني رائحة المسك] ولعل أهم كتبه في حقل الحكمة الأخلاقية، كتابه: (تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق)، وقد اشتهر به؛ وله أيضاً نحو سبعة عشر مؤلفاً دارت جميعاً مدار آداب المعاملة وفنون المعاشرة الفاضلة، وعلوم السير والسلوك. ويجمع المحققون على أن ابن مسكويه المولود في مدينة الري في إيران (توفي عام ٤٢١ للهجرة/١٠٣٠م) هو أول علماء الإسلام الذين كتبوا في علم الأخلاق بمفهومه العلمي الفلسفي، كما لمع نجمه في الفلسفة حتى لقبه البعض بـ«المعلم الثالث» بعد أرسطو والفارابي. يُذكر أنه قرأ (تاريخ الطبري) على أحمد بن كامل القاضي، ودرس علوم الأوائل على يد أبي الحسن بن سوار بن بابا بن بهرام المعروف بـ«ابن الخمار»، الذي كان بارعاً بالطب، وماهراً في العلوم الحكمية، وخبيراً بالترجمة، حيث نقل كتباً كثيرة باللغة السريانية إلى العربية. ما نحن بصدد هنا، هي واحدة من أبرز وصاياه الأخلاقية، وتتعلق بالصفات والأفعال المحمودة التي على الإنسان العاقل الأخذ بها ليبلغ كماله وسعادته.

- ٤- وحفظُ المواعيد حتى ينجزها؛ وأوّل ذلك ما بيني وبين الله جلّ وعزّ.
- ٥- وقلةُ الثقة بالناس بترك الاسترسال.
- ٦- ومحبةُ الجميل لأنه جميل؛ لا لغير ذلك.
- ٧- والصمتُ في أوقات حركات النفس للكلام حتى يُستشار فيه العقل.
- ٨- وحفظُ الحال التي تحصل في شيء، حتى تصير ملكةً ولا تفسد بالاسترسال.
- ٩- والإقدامُ على كلِّ ما كان صواباً.
- ١٠- والإشفاقُ على الزمان الذي هو العمر؛ لئلا يستعمل في المهم دون غيره.
- ١١- وتركُ الخوف من الموت والفقر لعمل ما ينبغي، وتركُ التواني، وتركُ الاكتراث لأقوال أهل الشرّ والحسد لئلا يشتغل بمقاتلتهم، وتركُ الانفعال لهم.
- ١٢- وحسنُ احتمال الغنى والفقر والكرامة والهوان بجهةٍ وجهة.
- ١٣- وذكرُ المرض وقت الصحة، والهَمُّ وقت السرور.
- ١٤- والرضا عند الغضب ليقُل الطغيي والبغي.
- ١٥- وقوةُ الأمل وحسن الرجاء والثقة بالله عزّ وجلّ، وصرفُ جميع البال إليه.

- بسم الله الرحمن الرحيم
- هذا ما عاهد عليه أحمد بن محمد، وهو يومئذ أمينٌ في سربه، معافى في جسمه، عنده قوتُ يومه، لا تدعوه إلى هذه المعاهدة ضرورةً نفسٍ ولا بدن، ولا يريد بها مراءاةً مخلوق، ولا استجلابَ منفعةٍ ولا دفعَ مضرّةٍ منهم. عاهد على أن يُجاهد نفسه ويتفقّد أمره فيعِفَّ وَيَشْجَع وَيَحْكُم.
- * وعلامةُ عفته: أن يقتصد في مآرب بدنه حتى لا يحملة الشرُّ على ما يضر جسمه أو يهتك مروءته.
- * وعلامةُ شجاعته: أن يجارب دواعي نفسه الذميمة حتى لا تقهره شهوةٌ قبيحة، ولا غضبٌ في غير موضعه.
- * وعلامةُ حكيمته: أن يستبصر في اعتقاداته حتى لا يفوته بقدر طاقته شيءٌ من العلوم والمعارف الصالحة؛ ليُصلِح أولاً نفسه ويهدبها، ويحصل له من هذه المجاهدة ثمرتها التي هي العدالة، وعلى أن يتمسك بهذه التذكيرة ويجتهد في القيام بها والعمل بموجبها؛ وهي خمسة عشر باباً:
- ١- إيثاؤُ الحق على الباطل في الاعتقادات، والصدق على الكذب في الأقوال، والخير على الشر في الأفعال.
 - ٢- وكثرةُ الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المرء وبين نفسه.
 - ٣- والتمسكُ بالشرعية ولزوم وظائفها.

دَوَاؤُكَ فَيْكَ وَمَا تَشْعُرُ وصية العلامة كرباسجيان لتلميذه

الشيخ علي أصغر كرباسجيان رحمته الله

العلامة الشيخ علي أصغر كرباسجيان رحمه الله (ت: ١٤٢٤ للهجرة) من الخطباء والمبشرين المعروفين في الجمهورية الإسلامية الإيرانية. تلقى علومه الدينية في مدرستَي «الصدر» و«مروى» في طهران، ثم حضر دروس المرجع الديني الراحل آية الله السيد البروجردي، والعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي، وجمعت بينه وبين الشهيد الشيخ مرتضى مطهري صداقة متينة. عمل منذ ما قبل انتصار الثورة الإسلامية على تربية جيل مؤمن من الشباب، فأسس لهذه الغاية مجموعة من المدارس والثانويات تجمع بين تعليم المناهج الحديثة وتدریس الأخلاق والمعارف الإسلامية، في طليعتها «مدرسة علوي»، وهي التي اتخذها الإمام الخميني - لفترة وجيزة - مقراً لإقامته بعد عودته إلى إيران سنة ١٩٧٩م. هذه الوصية مقتطفة بتصرف من كتاب (رسائل الأستاذ) الذي يتضمن رسائل الشيخ كرباسجيان وتوجيهاته الأخلاقية لبعض تلامذته.

ما هي الحكمة؟

نقرأ في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا...﴾ البقرة: ٢٦٩. والحكمة هي رؤية الواقع كما هو، أو فقل: التفكير بواقعية. ليست الحكمة في قراءة (الأسفار)، أو (شرح الإشارات)، أو تعلم مصطلحات فلسفية. نحن نرى بأن الكثير من الأشخاص قد درسوا هذه الأمور، ويُدرسونها أيضاً، إلا أنهم لم يصلوا إلى هذا الخير الكثير. أي أنهم يُتقنون علم «تنشئة الأسرة»، وقد ألفوا كتباً في هذا المجال، إلا أنهم لم يُفلحوا في تربية أولادهم وزوجاتهم؛ بل هم مَبغوضون في نظرهم، ويحيون معهم حياة جهنمية.

في المقابل، نرى رجلاً أمياً؛ لكنه ظفر بالحكمة، أي لديه علم رعاية وتنشئة الأسرة، وقد ربى أفراداً أفادوا المجتمع والناس، وكانوا مفخرة له. لذا على الإنسان أن يرى بواقعية، وأن يجعل من العقل والمنطق مصدراً لجميع أفعاله.

يُوصي لقمان الحكيم ولده قائلاً: «لا تجعل ليلك نهراً ونهارك ليلاً»، إن هذا القول حكمة ويجب أن يُطبَّق، فهو يشير إلى النوم أول الليل والاستيقاظ أول السحر.

ثم إن الآية الكريمة لا تعدّ الخير الكثير في أي من السيارة أو المال أو السكن أو أمثالها، إنما تعدّه في الحكمة. والحكمة هي الرؤية بواقعية، والإنسان الواقعي هو الذي يتخذ الحق معياراً، لا الأشخاص.

من المواعظ المنظومة هذا البيت المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام:

دَوَاؤُكَ فَيْكَ وَمَا تَشْعُرُ
وداؤك منك وما تنظر

إذا تلطّف بنا الله تعالى، وأدركنا معنى هذا البيت من الشعر، سيكون ذلك أول خطوة لنا نحو حلّ جميع مشاكلنا؛ لأننا إن عملنا بما نعلم سينار لنا الطريق كلما خطونا خطوة، ومن ثم نُقدّم على الخطوات التالية. روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوله: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عِلِمَ، أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَا يَعْلَمُ».

وفي المقابل، إن علمنا ولم نعمل؛ نكون مثل من بيده المصباح إلا أنه ساكن في مكانه لا يخطو، وحينها لن نستطيع الوصول إلى المقصد أبداً.

لا فائدة في طريق السلوك إلى الله سبحانه من الإجمال في القول، إذ إنك لن تحقّق شيئاً إن بقيت عشرات السنين تقول أريد الحصول على إجازة جامعية، بل ينبغي أن تدرس بجدّ لسنوات. وهذا الأمر ينطبق أيضاً على المعنويات.

إن برنامج العمل الذي سأعطيك إياه الآن، تظهر آثاره بعد شهرٍ واحدٍ من المداومة عليه؛ وهو النوم أول الليل... ولكي توفّق لهذا الأمر عليك أن تحفّف من وجبة طعام الغداء... وإذا لم تستطع النوم بسبب مخالفتك لما اعتدت عليه، فعليك أن تستلقي في فراشك حتى تغفو. وبعد مدة سوف تتمكن من التلذذ بنعمة الاستيقاظ وقت السحر. ولن تستطيع الاستيقاظ وقت السحر ما لم تنم أول الليل.